محاضرات مادة: نظرية العلاقات الدولية

السنة الثانية ليسانس – علوم سياسية

الأستاذ: *عبد الغاني دندان*

المحور الثاني: المحاضرة: 8 - 1

النظرية البنائية في العلاقات الدولية 1

تعكس الدراسات الحديثة والمتزايدة في مجال نظرية العلاقات الدولية اهتماماً واضحاً بتيار البناء الاجتماعي (Social Constructivism) الذي بدأ في البروز منافساً معتبراً للمدرستين السائدتين: الواقعية والليبرالية الجديدتين، وقلّ أن يخلو عدد من أعداد المجلات العالمية المتخصصة في العلاقات الدولية، في السنوات القليلة الأخيرة من موضوع يناقش مقاربة البناء الاجتماعي.

كما تجدر الإشارة إلى أن مصطلح البنائية قد استخدم من قبل عدة تخصصات لوصف معان مختلفة؛ فقد تناوله في علم الاجتماع على سبيل المثال كلٌّ من بيرجر ولكمان، و جيدنز. وفي التاريخ هايدن وايت، وفي علم النفس جين بياجت، وفي الأنثروبولوجيا بينيدكت أندرسون. وقد برزت البنائية كمنظار بديل في العلاقات الدولية مع كتابات كل من Nicholas Onuf وخاصة تلك الموسومة بـــ:' World of Our Making : Rules and Rule in Social Theory and International Relations' الصادرة عام 1989 ومقال Alexander wendt الصادر عام 1992 والمعنون بـــ:'Anarchy is What States Make of It :The Social Construction of Power Politics'.بالإضافة إلى إسهامات كتاب مثل:Kratochwill, Adler, Ashley

وتعتبر البنائية مقاربة مميزة للعلاقات الدولية إذ تركز على دور الثقافة والقيم والأفكار في العلاقات الدولية، وتتناول بالتحليل قضايا الهويات والمصالح والأفضليات والمثل(Norms). وعليه، فهي تمنحنا كما يرى "تيد هوبف" Ted Hopf

"فهما بديلا لعدد من القضايا المركزية في نظرية العلاقات الدولية كمعنى الفوضى وميزان القوى والعلاقة بين هوية الدولة والمصلحة وتطوير القوة وفرص التغيير في السياسة العالمية."

كما أن خلافها مع المدارس الأخرى ليس حول مدى أهمية القوة في السياسة العالمية، وإنما حول مجموعة من المسائل من ضمنها: **هل يمكن تفسير أنماط القوة وأشكال استمرارها بالاعتماد فقط على الاعتبارات المادية؟ أم يتحقق ذلك بإدراج الجوانب الثقافية كذلك؟** ويطرح هذا النهج التنظيري الجديد أسئلة مثل: كيف شُكِّلت هوية الدولة؟ وكيف يُعَرِّفُ مواطنو الدولة أنفسهم؟ وكيف تؤثر البيئة في سلوكيات الفاعلين وفي مكوناتهم من هويات ومصالح ومقدرات؟ وكيف تؤثر المثل والثقافة والهويات في سياسات الدولة، مثل سياسة الأمن القومي؟...إلخ

وتعتبر البنائية وجها جديدا في دراسة العلاقات الاجتماعية مهما كان نوعها انطلاقا من فرضية أن الكائنات البشرية هي كائنات اجتماعية. وهي في مجال العلاقات الدولية تركز بشكل عام على ما أسماه "جون سيرل" John Searle بـــ "الحقائق الاجتماعية"؛ بمعنى أن مواضيع كالسيادة والحقوق ليست بحقائق مادية ولكنها موجودة بفعل أن مجموعة من الناس يعتقدون بوجودها ويتفاعلون على أساسها. [1]

ففي الوقت الذي تميل فيه كل من الواقعية والليبرالية إلى التركيز على العوامل المادية، يصر البنائيون على أن العلاقات الدولية لا يمكن حصرها بأفعال وتفاعلات عقلية ضمن قيود مادية بحتة[الواقعية] أو ضمن قيود مؤسسية على المستويين المحلي والدولي [الدولية الليبرالية]. بل تتعدى ذلك لتركز على تأثير الأفكار وعلى البعد الاجتماعي والتذاتاني للسياسة العالمية. بالإضافة إلى أهمية البنى المعيارية ودور الهوية في تكوين المصالح والأفعال؛ فالمصلحة والهوية تتفاعل عبر عمليات اجتماعية. كما يولي أصحاب هذا النهج أهمية كبيرة للخطاب السائد في المجتمع لأنه يعكس ويشكل في الوقت ذاته المعتقدات والمصالح.

"[وعليه] فإن القضية المحورية في عالم ما بعد الحرب الباردة هي كيفية إدراك المجموعات المختلفة لهوياتها ومصالحها. ورغم أن التحليل البنائي لا يستبعد متغير القوة، إلا أن البنائية ترتكز بالأساس

1 يرى دوركايم أن الحقائق الاجتماعية تتكون بتجميع الحقائق الفردية عبر التفاعل الاجتماعي. غير أنه لم يهتم بدراسة العملية التي من خلالها تتحول المكونات الفردية بما فيها الأفكار لتصبح حقائق اجتماعية. لكنه استقى ذلك من أشكال التعبير الاجتماعي، مثل النصوص القانونية والممارسة الدينية.

على كيفية نشوء الأفكار والهويات، والكيفية التي تتفاعل بها مع بعضها البعض، لتشكل الطريقة التي تنظر بها الدول لمختلف المواقف، وتستجيب لها تبعا لذلك."

1. ابستيمولوجيا البنائية وأنواعها: من البنائية العامة إلى البنائية النقدية

بداية، تجدر الإشارة إلى أن البنائية بحسب Alex Macleod لم تُؤَسَّسْ بعد كمنظار حقيقي Paradigm بالمعنى الذي أورده Thomas Kuhn في بنية الثورات العلمية. وعليه

"فإننا نصفها بكونها 'مقاربة'. مقاربة أو أسلوب، أو طريقة أكثر من أي شيء آخر. إنها مقاربة ذات مدى تنظيري بخصوص دراسة العلاقات الدولية، أو بكل بساطة يمكن وصفها على أنها توليفة من المقاربات المترابطة أكثر منها مقاربة منسجمة بشكل متكامل."

وكغيرها من الاتجاهات النظرية في العلاقات الدولية، تتعدد صور النظرية البنائية وتتفاوت حسب درجة الاهتمام الذي يبديه منظروها إلى جملة من القضايا في السياسة العالمية، بالإضافة إلى اختلاف منطلقاتهم الابستيمولوجية والمنهجية. كما تختلف النظريات البنائية بالنظر إلى:

- مكانتها في مقابل الاتجاه العقلاني؛
- درجة الانسجام بين أنطولوجياتها المثالية وإبستيمولوجياتها (الجلية أو الضمنية)؛
- الأهمية التي توليها إلى اللغة؛
- مواقفها اتجاه النظريات النقدية الأخرى.

فقد ميز مثلا (katzenstein et al.1995) بين كل من البنائية العامة والنقدية وبنائية ما بعد الحداثة. في حين تكلم Ruggie عن ثلاث نسخ للبنائية؛ الكلاسيكية الجديدة، مابعد الحداثة، والبنائية الطبيعية. كما فرقت Fierke بين

مدرستين بنائيتين: الأولى لا ترى أي اختلاف أساسي مع المقاربات العقلانية في حين تؤكد الثانية على أسبقية ما أسمته بـــ 'الانعطاف اللغوي'virage linguistique [2]

ووفقا لـــ Ted Hopf فإنَّ

> **"البنائية نفسها يجب أن تُفْهَمَ بشكليها العام والنقدي. فهذه الأخيرة مرتبطة بشكل وثيق بالنظرية النقدية الاجتماعية في حين ترغب البنائية العامة في تقديم برنامج بحث بديل للاتجاه العام في نظرية العلاقات الدولية. ويتضمن مثل هذا البرنامج تنقيح البنائيين وإعادة صياغتهم لنظرية توازن التهديد، المأزق الأمني، نظرية التعاون النيوليبرالي والسلام الديمقراطي. ويتميز برنامج البحث البنائي بمشاكله الخاصة التي تركز على قضايا الهوية في السياسة العالمية والتنظير للسياسات الداخلية والثقافة في نظرية العلاقات الدولية."**

وتتساءل البنائية العامة أو المهيمنة Constructivisme conventionnel ذات الصبغة الوضعية بالأساس حول البناء المعياري للعقلانية، كما تسعى إلى مد الجسور بين النظريات العقلانية والتأملية؛ وهي تحاول بذلك أن تختط لنفسها طريقاً وسطاً بين المادية البحتة والمثالية المجردة؛ فقد أوضح Alexander Wendt موقفه الابستيمولوجي بقوله:

> **"ابستيومولوجيا، فقد اخترت جانب الوضعيين[...] إن أملنا الأساسي هو العلم الاجتماعي."**

2 ومع صعوبة الخلوص إلى تعميمات بشأن تصنيف النظريات البنائية، إلا أنه يبقى من الممكن تحديد الاتجاهات التي ميزت البنائية بالشكل الذي تواجدت عليه في الولايات المتحدة الأمريكية عن البنائية الأوروبية. فمنظرو البنائية داخل الولايات المتحدة الأمريكية يعملون ضمن ثقافة ومناخ فكري وسياسي أكثر صلابة وأكثر تقيدا بخطاب الأمن القومي الأمريكي. كما أنه أكثر تمحورا حول الدولة ومتداخل بشكل كبير مع الهيمنة الايديولوجية الوضعية. في حين ينخرط أنصار الاتجاه البنائي في أوروبا ضمن الأدبيات النقدية ذات المدى الفلسفي والمنهجي الأكثر اتساعا مما هي عليه 'العلوم الاجتماعية الوضعية'.

في حين يدافع آخرون كـ Risse, Checkel, Jepperson على أن الأنطولوجيا المثالية التي تتبناها البنائية هي الوجه الأفضل لتأمين العلم الاجتماعي الوضعي وتشجيع طريق وسطي نحو العقلانية.

وعلى العكس من ذلك، يرى أنصار البنائية النقدية Constructivisme critique ضرورة تأسيس البنائية على ابستيمولوجيا تأويلية Interprétative؛ فالتسليم الأنطولوجي بالتكوين المتبادل لكل من الفاعل والبنية عبر فُهومات تذاتانية يقود إلى رفض وجود الحقائق الموضوعية. ويعتقد Katzenstein و Ruggie وغيرهما أن العلاقة بين الأنطولوجيا والابستيمولوجيا هي مفتاح الانسجام الداخلي والقوة المنطقية لأي مقاربة نظرية، وأن الابستيمولوجيا يجب أن تكون متسقة مع انطولوجيتها.

كما تركز البنائية الوضعية على فكرة السببية معتبرة أن القوى المادية تؤثر على المجتمع بطريقة سببية وأن العوامل المثالية هي ملحق للسببية المادية.

> **"فالعديد من البنائيين لا زالوا يتكلمون بلغة سببية في حين يفضل آخرون التحليل الظرفي التاريخي في شرحهم للتحولات الدولية، محولين اهتمامهم المركزي نحو ابستيمولوجيا غير وضعية؛ إما بتوضيحهم لحقيقة أن التحول التاريخي واسع النطاق لا يمكن شرحه بواسطة عامل سببي واحد أو حتى أكثر ولكن من خلال تحليل الظروف (Analyse des conjonctures) أو عبر تحليلات تأويلية."**

ومع هذا ،تشترك كل من البنائية العامة و البنائية النقدية في سعيهما إلى جعل العالم الاجتماعي غير طبيعي denaturalize" the social world" بمحاولة كشف وتوضيح أن الممارسات والهويات التي يعتقد البشر أنها طبيعية ومسلم بها، هي في حقيقة الأمر نتاج للوكالة الإنسانية والتكوين الاجتماعي. كما يشتركان في أن الحقيقة التذاتانية والمعاني هي معطيات نقدية لفهم العالم الاجتماعي ويصرون على جعل جميع المعطيات في سياقها الأصيل؛ بمعنى ربطها ووضعها ضمن بيئتها الاجتماعية في سبيل الفهم الصحيح لمعانيها. ويقبل كلاهما الربط بين القوة والمعرفة وقوة الممارسة في قدرتها على إنتاج المعاني. بالإضافة إلى تبنيهما لفكرة التكوين المتبادل بين الفاعل والبنية Mutual constitution

2. محاور البحث الأنطولوجي في النظرية البنائية:

تنطلق البنائية كمنظور اجتماعي للسياسة العالمية من افتراضات أنطولوجية مثالية Idéaliste؛ فهي تعتقد أن الحقيقة الاجتماعية ومن ضمنها العلاقات الدولية تصاغ ويعاد تشكيلها عبر الأفعال الجماعية والتفاعلات الانسانية. كما تؤكد المثالية الأنطولوجية على أن الفهم السوي للعالم الاجتماعي لا بد أن يأخذ بعين الاعتبار الأحداث المتشكلة عبر الفعل الانساني الواعي والقصدي. وهي بذلك تؤكد على أنه:

- ضمن إطار التفاعل الانساني، كل حقيقة -بما فيها العلاقات الدولية-مبنية اجتماعيا Socialement construite؛ فالبشر يكونون صورا تذاتانية عن أنفسهم في مقابل الآخرين كما أنهم يحملون تصورات مختلفة عن مواقعهم في ظل عالم اجتماعي في تغير دائم. وبذلك فالوجود الاجتماعي ليس معطى موضوعيا ولا ذاتيا، بل شُكِّلَ بطريقة تذاتانية عبر الأفعال والتفاعلات الانسانية؛
- الطبيعة التذاتانية Intersubjectivity: يشمل الفهم التذاتاني كلا من الفاعل والبنية. فالمعايير والقواعد واللغات والمعاني والثقافات والايديولوجيات هي ظواهر اجتماعية تشكل الهويات وتقود الأفعال. فالأفراد يحتاجون إلى قبول هذه الظواهر الاجتماعية من أجل وجودهم وتعريف أنفسهم.

> **"فالسياسة العالمية تقاد بفعل الأفكار والقيم والمعايير المشتركة تذاتانيا والتي يحملها الفاعلون. فالبنائيون يركزون على البعد التذاتاني للمعرفة لرغبتهم تأكيد السمة الاجتماعية للوجود الانساني ودور الأفكار المشتركة كبنية مثالية تعيق وتبني السلوك."**

- السياسة العالمية تتحدد وفقا للبنية الإدراكية أو المثالية المكونة من الأفكار، العقائد، القيم الثقافية، المعايير والمؤسسات المبنية تذاتانيا من طرف الفاعلين أكثر منها ببنية موضوعية تنطلق من علاقات القوة المادية؛
- هذه البنية المثالية لا تأثر فقط على سلوكيات الفاعلين ولكنها تشارك أيضا في تشكيل هوياتهم ومصالحهم التي تبنى عبر التفاعلات الاجتماعية

"فالبيئات الثقافية لا تؤثر على حوافز السلوكيات المختلفة للدولة فقط بل أيضا على صفتها الأساسية التي ندعوها هوية الدولة."

- الفواعل والبنى مبنية بشكل متبادل Mutually Constituted ؛ فالبنية في السياسة العالمية هي مجموعة من القيود الثابتة نسبيا التي تفرض على سلوك الدول. وبالرغم من أن هذه القيود قد تأخذ شكل أنظمة حوافز أو عوائق مادية كتوازن القوى والسوق إلا أن المهم من وجهة نظر بنائية هو كيف سيؤدي الفعل أو لا يؤدي إلى إعادة تشكيل كلا من الفاعل والبنية.

"فالسلوك أو الفعل الذي له مغزى مُحتمل فقط ضمن سياق اجتماعي تذاتاني. ويقوم الفاعلون بتطوير علاقاتهم مع الآخرين وفهومهم من خلال المعايير والممارسات. وبالتالي ففي غياب هذه المعايير ستكون استخدامات القوة أو الممارسات مجردة من المعنى. فالمعايير الجوهرية تُعَرِّفُ الهوية وذلك بتحديد الأفعال التي تجعل من الآخرين يعترفون بتلك الهوية ويتعاملون معها بالشكل الملائم."